

المسيح في السينما: «ملك الملوك» من لحم ودم

سينما



من فيلم «ملك الملوك، للأميركي سيسيل بي ديميل

المسيح، فإنّ السينما أثبتت أنها وسيلة أفضل من الأيقونات والأصنام والرسم، لأنّها تمنحنا إحساسا أكمل بشخص ما كإنسان. عندما يتعلّق الأمر بالأفلام التي تجسد المسيح، تكون غالبا إمّا للتبشير أو الإهام الإيمان. لكن بعيدا عن الأفلام المسحّحة التي تكون رسالتها التبشيري في المقام الأول، أدخل مخرجون كثر يسوع المسيح في أعمالهم منذ ولادة السينما. رويدا وريدا، بدأت الأفلام التي تجسد المسيح تتّخذ منحنى مختلفا، وراح المخرجون يخاطرون في مقاربة المسيح وطرح جدلية الإيمان.

من الأفلام الأولى التي جسدت المسيح في السينما الصامئة فيلم فرنسي الإنتاج (44 دقيقة) حمل عنوان «حياة وعاطفة يسوع المسيح» (1905). وفي عام 1927، قدّم المخرج الأميركي سيسيل بي ديميل فيلمه «ملك الملوك» الصامت عن حياة يسوع من الولادة حتى الصلب. اعتبر العمل (ساعتان ونصف الساعة) من أهم الأفلام الصامئة عن حياة المسيح. ومن بعدها، صارت سنويا تنهال الأفلام التي تقدّم يسوع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. في هذا المقال، سوف نستعرض بعض أهم الأفلام التي جسدت المسيح في الفن السابع.

«ملك الملوك» (1961) — نيكولاس راي

تقديم فيلم يحمل عنوان وقصة أحد أهم الأفلام الصامئة التي قدّمها سيسيل بي ديميل، لا يعني أنّ الفيلم هو إعادة للشريط

للنكري. قام «مجمع نيقية الثاني» في عام 787 بتسوية هذه الخلافات، معلنا أنّ الأيقونات والصلبان لا تُعتبر وثنية. واعتبر أنّ «إنتاج

أفلام يجب ذكرها

كثيرة هي الأفلام التي تناولت حياة المسيح، ولكن قليلة هي التي يستوجب التوقف عندها. مع الأفلام التي ذكرناها آنفاً، هناك بعض من الأعمال التي تناولت حياة أو تعاليم المسيح بطريقة غير مباشرة. لكن كان للمسيح دور كبير فيها. لا يمكن ذكرها كلها لأنّ أكثرها أفلام تلفزيونية، ونحن نتكلم عن الأفلام السينمائية. لكن سوف نذكر فيلمين سينمائيين لا يمكن تخفيفهما.

- «درب التبتاة» (1969)، الإسباني الكبير لويس بونويل يسير في الفيلم بطريقة فكاهية وسريالية. خلال رحلة لاثنتين من المتسولين في طريق الحج المسيحي الرئيسي (طريق القديس يعقوب)، يواجهان الفئانغ والبعد والخرافات والتعصب التي شارك فيها الدين الكاثوليكي خلال تاريخه. يُظهر الشريط مبدأ الخير والشر، ويظهر بونويل بعض الغموض في ما يتعلّق بالموضوع الديني حتى عند لقاء المتشردين بيسوع ومريم العذراء. باختصار، الفيلم هو درس في اللاهوت والفلسفة يضيء على قضايا مثل الأقدار والخطيئة والنعمة والطبيعة البشرية والإلهية للمسيح ومحاكم التفتيش.

- «صمت» (2016)، مارتن سكورسيزي يعود من جديد بفيلم شخصي مسيحي. «صمت» هو فيلم متطرّف عن الدين والصراعات النفسية داخل الشخص المدين والكاهن. لا يتعدّد كثيراً عن «الإغواء الأخير للمسيح»، فهو تأملات حول الإيمان وصلّة المدين بربه وصمت الرب تجاه الأوهال الإنسانية والشك بالدين داخل كل فرد.

الأول. على العكس، ولد شغف نيكولاس راي بالفيلم من قلبه مباشرة، ويسرد صوتي من المخرج الأميركي الكبير أورسون ويلز. في فيلم راي، ليس المسيح (لعب الدور الممثل الكبير جيفري هانتز) رجلاً ذا سلطة مهيبه، بل شاب بسيط وبيدين وضخم. لم يسع راي لتحريك مشاعر المشاهد من خلال «عجائب» المسيح، بل ذهب إلى جوهر الدين والعقيدة. مثلاً، مشهد الخطبة الطويلة على الجبل (أحد أجمل مشاهد الفيلم) يجسد هذه الأيديولوجيا الدينية، ويقدم قصة المسيح الذي يسعى ليكون بين شعبه. ديناميكية هذا المشهد مع المناظر الخلابة، ناجحة جداً.

لا يتحدث المسيح إلى الناس عبر المنبر، بل يتعامل معهم، يمشي بينهم، يسمع كل مطلب، ويجب على كل سؤال، ويستسلم كلياً لشعبه زارعا فيه بذرة معرفته. وهذا ما نجح راي فيه، أي تقديم صورة رجل جاء للتعليم، والتركيز على قوة المذهب الإيماني الذي يبشّر به. وعلى الرغم من أنّها قصة دينية بنبض ملحني، إلا أنّها لا تركّز فقط على شخصية يسوع، بل روت أحداثنا قبل ولادته مع التركيز على القمع الذي عاناه اليهود على يد الرومان. النهج الأيديولوجي لفيلم راي، عكس شخصية المخرج تماما: إظهار يسوع في لحظة تاريخية، ثورياً ومندمجاً كلياً في عصره كالمخرج تماما. «ملك الملوك» أحد أهم الأفلام عن حياة المسيح وموته. وبالتأكيد ما زلنا نذكر لغاية اليوم جيفري هنتر بوصفه اليسوع الأكثر جاذبية على الشاشة الكبيرة.

«الإنجيل بحسب القديس متى» شكّل ثورة. ومثل كل ثورة، تطلّب من المقاتلين التخلي عن كوابهم العاطفية. مسيح بازوليني هو مسيح راديكالي مصمم على تغيير العالم. ولأن المخرج يروي قصة المسيح بطريقة متطرفة ويظهره عازماً على هدم التماذج السائدة، اضطر بازوليني لكسر مسلمات عدة. يسوع بازوليني ذو ملامح سامية، وبشرة داكنة وعينين سوداوين. وإبراز عمق ملامحه، لجا إلى تفصيل مهم: الوشاح الذي يغطي رأسه اسود. يصبح المسيح مظلماً ذا وجه عازم على التغيير. راديكالية المسيح هنا تتجاوز الصورة المادية. لم يتكف بهدم حماة الكنوز وتوزيع الثروات، بل أعاد الكرامة للمحرّمين. هاجم المشافقين الذين أقسموا بذهب المعبد بدلاً من العبء نفسه أو الذين يقدرّسون المادة أكثر من تقدسيهم المذبح.

مع كل هذه الراديكالية في الطرح، ليس هناك مساحة لتقديم صور عاطفية. إذ لا جلد ولا ألم عند حمل الصليب في الفيلم. المسيح لا يزال في منأى عن نفسه، يتحرك نحو استشهاده كرجل كامل منيع ضد التعذيب، من دون أي أثر للمعاناة. باستثناءات قليلة دم خفيفة تسقط على جبينه في اللحظة الأخيرة من صلبه. بازوليني أقل اهتماما بمعاناة الإنسان، فالهمّ بالنسبة إليه هو البذور التي زرعت. لذا، ليس

«الإنجيل بحسب القديس متى» (1964) — بيار باولو بازوليني

على الرغم من أنّ المخرج الإيطالي الكبير بيار باولو بازوليني شيوعي وملحد، إلا أنّ أحد أكثر أعماله نجاحاً وشعبية هو فيلم عن يسوع (لعب دوره الممثل الإسباني أنريكي إيرازوكي). قدّم بازوليني في تحفته صورة موثوقة لوجود المسيح، من خلال التأثير الديني لآلته التي أحبها كثيراً (ظهرت في الفيلم تجسد مريم العذراء عندما أصبحت عجوزاً). طريقة تقديم الفيلم كانت مفاجأة تقريبا، ليس بسبب واقعيّتها العظيمة، ولا بسبب وقوف أحد المخرجين المحدثين خلف الكاميرا، بل لأنّ بازوليني قدّم «الإنجيل بحسب القديس متى» انطلاقاً من رؤية ماركسية. حافظ بإخلاص على ما جاء في الإنجيل، وروى أكثر اللحظات شهرة في حياة يسوع: «المعمودية على يد يوحنا المعمدان في مياه نهر الأردن، تعليم تلاميذه من خلال الأمثال، اعتزاله في الصحراء لمدة أربعين يوماً وليلة، المواجهة مع القرّيس والكهنة، وتحقيق المعجزات، والغموض عليه وحاكمته وصلبه، وقيامه من بين الأموات». استرج نهج بازوليني السريدي في الفيلم بالشاعرية والغموض والواقعية والرؤية الفلسفية التي ترتبط بالأفكار الماركسية. فيلم أبيض واسود، ومناظر طبيعية شبه قاسية مصحوبة بموسيقى كلاسيكية من موزار وباخ وبروكوفيف.

«الإنجيل بحسب القديس متى» شكّل ثورة. ومثل كل ثورة، تطلّب من المقاتلين التخلي عن كوابهم العاطفية. مسيح بازوليني هو مسيح راديكالي مصمم على تغيير العالم. ولأن المخرج يروي قصة المسيح بطريقة متطرفة ويظهره عازماً على هدم التماذج السائدة، اضطر بازوليني لكسر مسلمات عدة. يسوع بازوليني ذو ملامح سامية، وبشرة داكنة وعينين سوداوين. وإبراز عمق ملامحه، لجا إلى تفصيل مهم: الوشاح الذي يغطي رأسه اسود. يصبح المسيح مظلماً ذا وجه عازم على التغيير. راديكالية المسيح هنا تتجاوز الصورة المادية. لم يتكف بهدم حماة الكنوز وتوزيع الثروات، بل أعاد الكرامة للمحرّمين. هاجم المشافقين الذين أقسموا بذهب المعبد بدلاً من العبء نفسه أو الذين يقدرّسون المادة أكثر من تقدسيهم المذبح.

غريباً أن نرى في وقت القامة، تلازمة يسوع يركضون بشكل ملحمي لمقابلته. وفي يدهم أدوات حرت الأرض. هؤلاء مقدّر لهم زرع عقيدة من جديد في تلك الجغرافيا القاسية والموحشة التي تسكن الفيلم بأكمله.

«الإغواء الأخير للمسيح» (1988) — هارنت سكورسيزي

بعد أربع سنوات من محاولة المخرج الأميركي مارتن سكورسيزي إنتاج «الإغواء الأخير للمسيح»، كان أي يفقد الأمل، لكنّه ظلّ صابراً ومحاربا. بالنسبة إلى رجل كاثوليكي مثله كان يفكر أنّ يصبح كاهناً في شبابه، شكّل فيلم مماثل تحدياً شخصياً بالنسبة إليه. والأهم أن رواية نيكوس كارانتزاكيس زودته بنظرة تنبّه إلى حد ما خصوصيته الفنية. من خلالها، شرح سكورسيزي خطاب يسوع

الإنبث 23 كانون الأول 2019 العدد 3940 ■ **الأخبار** 23 ثقافة وناس



قدّم بازوليني، الإنجيل بحسب القديس متى، انطلاقاً من رؤية ماركسية

لأحداث الواردة في الإنجيل، التي أشعلت الجدل. في وقت الصلب، يحدث الشيء الأكثر إثارة للاهتمام في الفيلم، حين يعرف يسوع أنّ تضحيته لم تعد ضرورية، ويتمتع بكامل الحرية في أن يعيش حياته كما يحلو له. بل أنّ يتزوج من يحب. في فيلم سكورسيزي، يعيش المسيح ليصبح عجوزاً، وبعدها يجد نفسه على الصليب من جديد ويطلب من الله المغفرة. هذا التحول دفع المتعصّين إلى مقاطعة الفيلم منذ أن كان مجرد جنين. تفجر الغضب والعنف في صالات العرض واضرمت النار في صالة عرض في باريس، ومنع الشريط في الكثير من البلدان ولا يزال ممنوعاً في بعضها حتى اليوم. لا يمكن إنكار أنّ الفيلم مثير للجدل، ولعله الأكثر إثارة للجدل في مسيرة سكورسيزي السينمائية. لكن «الإغواء الأخير للمسيح» هو عمل شخصي جداً لمؤلّف ومخرج أصيل. السينما التي يقدمها هي سينما شخصية جداً. مسيح سكورسيزي هو المسيح العاشق، الهارب الذي خُذع من أسوأ عدو له: المسيح الإنسان.

«الام المسيح» (2004) — ميك غيبسون

في عمر الثالثة والثلاثين، أصبح الرجل المبشّر بالمسيحية والحب أسطورة قبل أي شيء آخر. حمل خطبة العالم على ظهره، وكانت طريقه إلى الموت. كانت «الام المسيح»، فيلم الممثل والمخرج الأسترالي الأميركي ميل غيبسون يتحدث عن آخر 12 ساعة من حياة يسوع.

بيرز الشريط بوضوح شديد – بسبب محتواه العالي من العنف – الساعات الأخيرة من حياة المسيح بطريقة غير عادية، خاصة بالنسبة إلى فيلم ذي طابع ديني حيث يتم تخفيف حدة العنف إلى أقصى حد. أراد غيبسون أن يُظهر بالتفصيل وبوحشية طريق المسيح إلى الصلب. بهذا المعنى، سوف نرى خلال معظم الفيلم المسيح يواجه أشد أنواع العنف بطريقة تفصيلية. كل أعمال العنف الوحشية المعروضة في الفيلم هي استغزاز واضح وناجح للجمهور. سمعنا الأشخاص ذوو الدم الحار بحاجة لإقحام الشاشة لمساعدة المسيح. ومن

ناحية أخرى، سيعطي الأشخاص الحساسون أعينهم عن هذه المشاهد وربما التوقف نهائياً عن المشاهدة. العقوبة التي تواجه المسيح في الفيلم تتجاوز اللاإنسانية، سادية إلى أبعد الحدود كأنها تنفّذ فينّاً مباشرة.



«الام المسيح»، لميك غيبسون، تحدّد منذ آخر 11 ساعة من حياة يسوع

بطريقة شخصية. يقدم الفيلم الإزدواجية الشديدة داخل المسيح (ويليام دافو)، الذي عرض عليه إمكانية عيش حياة بعيدة عن الجانب الإلهي الذين مسيح سكورسيزي يكافح مع الجميع، ونضاله الأعظم والأشدّ ضراوة هو مع نفسه، إنّها المواجهة بين الإنسان والآله، الصراع بين داخلنا الروحي والمادي. هذا هو جوهر سينما سكورسيزي. سينما وجودية معذبة وعمق. ينظر المسيح إلى نفسه بوحشية غير عادية. جروح جسده ومعاناته الجسدية هي في الوقت نفسه مرة وتمثيل لآلامه الداخلية. المسيح حكاية واستعارة لمعاناة العالم لا أداة للابيمان.

لا وجود للكريسماس في الفيلم ولا نهج مبسّط للشخصية الأسطورية لیسوع. هو إنسان هنا، ما يعطي بعداً جديداً أكثر واقعية وقوة من حالته السماوية. يروي الشريط